صورة من الحياة :

قلب أب!

للأستاذ كامل محمود حبيب

— ١ —

أتذكر - ياصاحبي — يوم أن عرفتك أول مرة لحن لك قلبي ، وصبت إليك نفسي ، ورقت مشاعري ، يوم أن كنت عند مشرق الحياة صبياً ضاوي الجسم ناحل العود ممروق العظم ، تهاوى من ضعف ومن هزال ، وتساقط من ضنى ومن حزن ، فلا تجد اليد الرفيقة التي تمسح على أشجانك ، ولا القلب الرحيم الذي يعطف على أسقامك ، لأنك كنت قد فقدت أمك فما استطاع أبوك أن يصبر على الوحدة ، وإنه ليحس التشعث والضياع ، ويستشعر الضيق والملل ، والدار من بين يديه خاوية تصفر ، والخادم من أمامه لا ترعوى عن تراخ ولا عن إهمال ، والدنيا في ناظريه تضطرب في حيرة وقلق ، وقلبه يخفق بالأمل والرغبة وهو شاب في ميعة الصبا ووفرة المال ، تتدفق في عروقه ثورة الشباب وتتألق في أعصابه دواعي الفتوة ... وضاقت به الحيلة ، فانطلق يتلمس الخلاص في فتاة من ذوي قرابته يبوئها عرش داره وقلبه معاً ليملأ فراغاً خلفته أمك منذ شهور وشهور. وجاءت الزوجة الجديدة فأحسست كأنها تزحمك بالمنكب وتدفعك بالقوة وتغلبك بالحيلة ، لتستلبك من دارك ومن أبيك في وقت معاً ، فحملت لها بغضاً ؛ ثم انطويت على خواطر مضطرمة يتأجج لظاها في ذهنك .

واستحالت خفة الصبا فيك إلى رزانة كرزانة الشيخ عركته الخطوب وصقلته الحوادث ، وتعكر صفو الطفولة في نفسك مثل هم الرجل ينوء كاهله تحت عبء السنين العجاف ؛ فازويت تكتم أشجاناً غمرت حياتك على حين غفلة منك ، وأنت ما تزال عند مطلع العمر .

وأفزع أباك أن يرى حالك تتغير ، فتركن إلى الصمت وأترابك هناك في الشارع يملأون الدنيا ضجة وصياحاً ، وتسكن إلى الوحدة والدار تموج بالأهل من كل سن فلا تهدأ إلا ساعة القيلولة ، وتستطيب الخلوة وأنت في سن المرح والحركة تحبو إلى الشباب في غير ريث ولا اجهل ، وتنفض يديك من حاجات الغيط والدار فلا تسلى الهم بالعمل ولا تسرى عن النفس بالشغل . تجلس إليك — في خلوة — يحدثك حديث تجاربه ، ويوحي إليك — وأنت أكبر بنيه الثلاثة — أنك رب هذا المال وسيد هذه الدار وصاحب هذا السلطان ، ثم أقامك على بعض شأنه لترضى ، فانفرجت أسارير نفسك وهدأت جائشة قلبك وانجابت عنك غمة أوشكت أن تعصف بك في غير رحمة ولا شفقة .

ورحت أنت تبسط سلطانك على شئون الدار في شطط لا يعرف الاعتدال ، وتصرف الأمر في حمق لا يعرف العقل ، وتاق الرأي في طفولة لا تعرف الحصافة ، غير أن أباك كان من ورائك يهدهد من غلوائك في رفق ، ويكبح من جماح أهوائك في لين .

لقد كانت زوجة أبيك — ولا ريب — تطمع أن تكون سيدة الدار وصاحبة السلطان ، وهي ترى الدار تغرق بالنعمة وتشرق بالثراء ، ولكنك كنت تسد أمامها المنفذ في قسوة ، وتغل يدها في غلظة ، فما تنال من مال أبيك إلا بقدر لا يشبع النهم ولا يشفي الغلة ، فراحت ترقبك في غيظ يحمل في ثناياه مقتاً وكراهية . وأبت أنوثتها أن تستسلم أو تخضع فهبت تحتال للأمر في مكر وخديعة ، واندفعت تنفث سمومها في قلب أبيك في هوادة وفي رفق ؛ وأبوك يلقي السمع حيناً ويغضي عن الحديث حيناً ، والشيطانة لا تهدأ ولا تستكين ، وأنت في لهو يشغلك الغرور وتعميك الغواية .

واستطاعت الزوجة أن تجذب إليها الرجل رويداً رويداً ليناى عنك رويداً رويداً ، وأنت في لهو يشغلك الغرور وتعميك الغواية .

وسرت في أضلاع الدار ثورة مكفوفة توشك أن تنفجر

فتبصر الهدوء والراحة ، وتدرى السلام والأمن : فأبوك يجلس إلى زوجته كل مساء فى خلوة يستمع إلى حديثها فى صمت ، وهو يستشف من خلال كلماتها روح الختل والخداع آناً ، ويلمس فيه سمات الصراحة والحق آناً ، فيتهم زوجه ويرميك أنت بالطيش والنزق . والزوجة تلبس ثوب الثعلب فتلقاك فى بشاشة واستبشار على حين أنها تنشر من حواليك شباكاً محبوكة الأطراف لتعكر صفو ما بينك وبين أبيك ، وهو يسلس وينقاد . وأنت ... أنت أيها الصبي ... لا يستطيع عقلك الصغير أن ينحط إلى بعض ما يدور حولك مما ينسجه عقل شيطان حصيف مرن على المداهنة والمكر ، فلا ترى ولا تسمع ، غير أنك تتشبث بسلطانك فى الدار مثلما يتشبث الطفل بلعبة عزيزة على نفسه يخشى أن يستلبها مارد جبار من بين يديه الصغيرتين .

وسافر أبوك — ذات مرة — إلى المدينة لبعض شأنه ، فجلست أنت فى مكانه من الدار وقد صورت لك أخيلتك الطائشة أنك قد لبست ثوب الرجل الذى فيه ، فاندفعت تأمر فى كبرياء وجفوة ، والفتاة تبسم فى عبث ساخرة من نزواتك الطفلية ولكنها لم تمتنع على رغبتك خشية أن تندلع من حماقتك نار حامية يلتهم أوارها سعادة ترجاها فى هذه الدار ، فخضعت وهى تسر فى نفسها أمراً . وجاءك النداء — بعد ساعة — ينقضّ على أطايب الطعام : على البيض والسمن والزبدة والجبن والعسل و ... مما يتحلب له الريق وتثور له شهوة البطن ... وجلست إلى الطعام ، بين أخويك ، تريد أن تشبع النهم والكبرياء فى وقت معاً .

ورأيت أباك يدلف إلى الدار — فى هذه اللحظة — فقلت لأخويك ، « انتظرا حتى يأتى أبى فينعم معنا بهذا الطعام الشهى ، فهو — ولا شك — فى حاجة إليه بعد هذا الضنى والنصب . إنه لا يلبث أن يحضر بعد أن ينفى عنه وعثاء الطريق وعناء السفر » فأمسكا عن الطعام وأمسكت .

ياعجبا ! هذه هى نوازع الصبية : صافية كالجوهر الخالص ، نقية كالسلسبيل الطاهر ، لطيفة كالظل الوارف ساعة الهاجرة ، ندية كهبات نسيم الفجر الساحر ، آه ، لو عاش الانسان عمره فى سريرة الصبى وشعور الطفل ، إذن لتوارت من الحياة شوائب تزعج النفس وتفزع القلب !

وخرج أبوك — بعد لحظات — من لدن زوجته يستحث الخطو نحوك وقد اكتسى وجهه بغبرات من الحزن والضيق لم تشهدها وأنت تهش للقياه . وأفزعك أن ترى على وجهه أثر الغضب ، فأمسكت عن الحديث ، ولكنه أقبل فى ثورة جارفة يأمر الخادم أن يرفع الطعام من بين يديك أنت وأخويك أحوج ما تكونون إليه . آه لقد وسوست الشيطانة ، وأذهلتك المفاجأة فشرقت بريقك ، وماتت الكلمات على شفتيك ، ودارت الدنيا بك من شدة الصدمة فسقطت متهالكاً على كرسى بجوارك ، وآذاك أن يبدو ضعفك بين يدى أخويك الصغيرين وأنت — كرأيك — رب المال وسيد الدار وصاحب السلطان ، فتماسكت تماسكت لترى أباك والطعام يتواريان فى طرفة عين ، فنظرت إلى أخويك من عبرات حرى تتدفق على خديك تنطق بالأسى واللوعة واليأس جميعاً .

وبكى أخواك الصغيران ، فاحتضنتهما فى عطف وحنان لتشعرهما بأنك أنت أمهما حين ماتت الأم ، وأنك أنت أبوهما حين قسا الأب . واختلطت عبرة بعبرة ، وخفق قلب لقلب ، وتعانقت زفرة وزفرة ، واجتمع الرأى على أمر ، ثم اندفع الركب يسير وبدا لك — ياصاحبى — إذذاك ، أن أباك كان يختلك عن نفسك ، وأن زوجته كانت تسخر من طفولتك ، وأنت لست شيئاً فى هذه الدار .

وتبعتكم — ياصاحبى — بعبراتى ، وأنا — إذذاك — صبى مغلول اليد واللسان ، فرأيت أطفالا ثلاثة شردتهم القسوة ففزعوا عن دار أبيهم فى ذلة وانكسار ، وقد هدهم الأسى واضناهم الحزن وأرهقهم الجوع ، على حين قد ترفعوا عن الشكوى فأبوا على وسعوا على الخسف وتبعتكم بعبراتى ، ولكن إلى أين — ياصاحبى — إلى أين ؟

كامل محمود حبيب